

دلائل الإعجاز

عن مزية في المعنى .

وجملة الأمر أن لا نوجبُ الفصاحةَ للفتحةِ مقطوعةٍ مرفوعةٍ من الكلامِ الذي هي فيه ولكننا نوجبُها لها موصولةً بغيرها ومعلّقةً معناها بمعنى ما يليها . فإذا قلنا في لفظةٍ " اشتعل " من قوله تعالى : (واشتعلَ الرَّأسُ شَيْباً) : إنها في أعلى المرتبة من الفصاحةِ لم نوجبْ تلكَ الفصاحةَ لها وحدها ولكن موصولاً بها الرأسُ معرّفاً بالالف واللام ومروناً إليها الشَّيْبُ منكّراً منصوباً .

هذا وإنما يقعُ ذلك في الوَهْمِ لمن يَقَعُ له أعني أن تُوجبَ الفصاحةَ للفتحة وحدها فيما كان استعارةً . فأما ما خلا من الاستعارة من الكلام الفصيح البليغ فلا يعرضُ توهّمٌ ذلك فيه لعاقلي أصلاً . أفلا ترى أنه لا يقعُ في نفس مَنْ يعقل أدنى شيءٍ إذا هو نظرَ إلى قوله عزَّ وجلَّ : (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَادْرَاهُمْ) . وإلى إكبارِ الناسِ شأنَ هذه الآية في الفصاحة أن يضعَ يدَه على كلمةٍ كلمةٍ منها فيقولُ : إنها فصيحةٌ كيف وسببُ الفصاحة فيها أمورٌ لا يشكُّ عاقلٌ في أنها معنوية : .

أولّها : أن كانت " على " فيها متعلقةٌ بمحذوف في موضع المفعول الثاني . والثاني : أن كانت الجملةُ التي هي " هم العدوُّ " بعدها عاريةٌ من حرف عطف . والثالث : التعريفُ في العدوِّ وأنَّ لم يقل : هم عدوُّ . ولو أنك علّقتَ " على " بظاهر وأدخلتَ على الجملة التي هي " هم العدوُّ " حرفَ عطفٍ وأسقطتَ الألف واللام من العدوِّ فقلت : يحسبون كلَّ صيحةٍ واقعةً عليهم وهم عدو لرايتَ الفصاحةَ قد ذهبتْ عنها بأسرها . ولو أنك أخطرتَ ببالك أن يكونَ " عليهم " متعلّقةً بنفس الصَّيْحَةِ ويكون حاله معها كحالهِ إذا قلتَ : صرحتُ عليه لأخرجته عن أن يكونَ كلاماً فضلاً عن أن يكونَ فصيحاً . وهذا هو الفيصلُ لمن عاقل .

ومن العجيبِ في هذا ما رُوِيَ عن أمير المؤمنين عليٍّ رضوانُ الله عليه أنه قال : ما سمعتُ كلمةً عربيةً من العرب إلا وسمعتها من رسول الله . وسمعتها يقول : " مات حَتَفٌ